يوم في حياة عاطل

وقصص أخرى

أكرم إبراهيم البكري

إهداء ... أول

الـي ....
حبيبي الغالي
محمد أكرم إبراهيم
لك وانت ترسم انحناءتك على جدار حياتي

إهداء ..... ثاني

الي .....

الـــصديق الشفيف

استاذ : علاء الدين سنهوري

الفضـــل يعـــود اليـــه بعـــد اللـــه ســـبحانه

في اصدار هذه المجموعة برغم تواضعها ...

علاء سنهوري ..... نكهة حياة

دُمتَ مُنحازاً للإنـسانية فينا

شكر الخاص ....

الي الاستاذة : مني شوربجي
صاحبة الريشة الفنانة ورسوماتها التي زيّنت المجموعة

الفهرست

يوم في حياة عاطل ٩
موت بطل الرواية ٣٥
رسولُ النفاق ٥١
الشجرة ٥٧

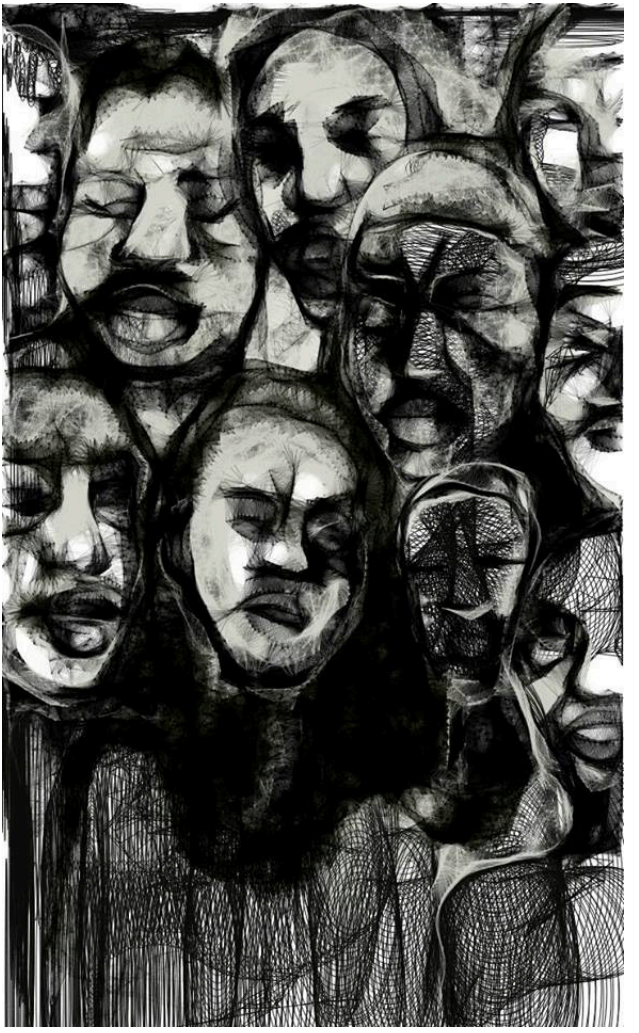

يوم في حياة عاطل

وبعد دا تقول لي وطن.....
بلد مجرد واطه لـمّة ناس .....
علم لا غيرة لا إحســاس .....

فتـح عينيـه لرؤيـة كابـوس حياتـه المريـر مـرة أخـرى، حـرّك يـده تحـت الوســادة وأخــرج كيــس تمبــاك (الوطنيــه) نفضــه عــدة مــرات حتــى تكـوّرت حُبيبـات العـماري في ركـن قـصيّ ، دردم سـفة صغـيرة ووضعهـا تحـت شـفته السـفلى، يـوم آخـر مـن أيـام الـرب في هـذه المدينـه الظـالم حاكمهــا، فتــح بــاب الغرفــة المتهالــك مثــل اقتصــاد الوطــن أصــدر البـاب صريـر الفقـر والعـوز، نظـر إلى الخـارج شـمس الخرطـوم في عـز أغسـطس المريـر، اشـعة الشـمس تتواطـأ مـع النظـام لحـرق مـا تبقـى مــن الشــعب، يبــدو أنّهــا قــد أمطــرت ليلــة امــس.

دلـف إلى الحـمام وصيـاح مـن الشـارع يصـل صـداه إليـه، همهـم في نفسـه :- إنّهـم أولاد الـسُرة بـت الشـول... صباحـك يـا بلـد

- صوت آخر يعرفه جيداً....إنّها والدته

- خلاص صحيت يا الوارث، نائم ليها شنو لحدّى الساعه عشرة عطالة وسف تمباك، وامبارح داخل البيت بعد نصّ الليل.....

لم يعِ بقية موّال والدته خرج من الحمام بعد قضاء حاجته التي استعصت في البدء إلا أنّها خرجت متعثرة وعلى دفعات مثل الاحتجاجات على النظام القائم.

- برك على الوضايه التي في حوش المنزل تناول فرشاة أسنانه وأخذ معجون الأسنان بيده، نظر اليه بطرف عين إنه فارغ تماماً مثل الوطن الذى أفرغ شبابه خارج الحدود ، عصره عصراً أخرج أمعائه ووضعها على فرشاة أسنانه المهترئه، طعمه مثل دقيق الإغاثه ، حتى منظف أفواه السودانيين صيني ، وهو في هذا الوضع نظر إلى الأرض جريدة يوميه مبتله بأمطار الأمس عليها صورة الزعيم وهو في وضع راقص ويلوح بيده اليمنى ممسكاً على عصاة من الأبنوس وعنوان عريض بالأحمر الزعيم يَعَد بالقضاء علي الفساد والقطط السمان ... يبتسم ساخرا.

- صوت والدته يتخلل صدى كلمات الزعيم في بيانه الاول ويحكي مأساة وطن...

: انت ما خلاااص فكيت، وعيارك فلت، أبوك لو كان عايش ما كان خلاك كده، اسمع يا تشوف ليك شغلانه يا ما تجى راجع البيت دا....أحي انا اااااااحي ووووب علي.

- تذكر في تلك اللحظه خاله (الامين) ومشروع (الركشه) ، الامين ذهب إلى هناك قبل شهر من الآن، قُبر في (حمد النيل) وسط ذهول تام للحي ومشروع أُجهض قبل الميلاد بثوانٍ ردّد بصوت عالٍ وهو يتجه ناحية غرفته :

ترى يا خال لاقيت الشباب ديلك الماتو عشان النسوان والخمرة شباب عرّفوا الجنّة زي الإندايه.

سرح في تلك الفترة من عمر البلد ومتحركات المنتحرين من الشباب تتجه لجنوب الوطن والذى بتر بعد حين وتم بيع دماء من صرعوا هناك بثمنٍ بخسٍ وكانوا فيهم من الزاهدين ، دلف إلى الغرفة ارتدى نفس البنطلون الجينز والذى كان واقفاً دون ارتداء عليه اثار بقع قديم وكتابة باللغة الانجليزية وبعض الرسومات سحق من الجلوس الكثير علي ارضية (أتني) و (حليوة)، لبس ال (تي شيرت) الأحمر علي الصدر طبع رسم للمنجل باللون الابيض رمزا لعهد بائد ، رائحة عرقه مع رطوبة الجوء امتزجت مع بعضها فاعطت نوعاً غريباً من الروائح لا هي كريهة ولا هي مقبولة رائحه مثل شعورك نحو وطنك الآن.

ارتدى ملابسه ووضع قليلاً من الماء على شعر راسه الأشعث الذى دائماً ما يذكره بالانتفاضة الأخيرة والتي تمّ تصفية عدد من الشباب فيها، خرج يومها معلناً احتجاجه على القرارات الجديدة، خرج ومعه عصبة من شباب الحي إلى الشارع الرئيسي، رجع بقميص متشرب دماء، ونفر قليل ممّن خرجوا معه بعد أن فقدوا البقيّة في متاهات شهر سبتمبر الحزين .

هـمّ بالخـروج تريّـث قليـلاً دخـل عـلى والدتـه في (التُـكل) وقـف أمامهـا زائـغ العينـين نظـرت إليـه ولم تعـره اهتمامـاً، تمتـم أخـيرا:

: يا والدة بس لو أمكن حق مواصلا .....

-لم يكمـل بقيـه الكلمـة وانفتحـت (السـماء فهـي يومئـذ كالدخـان) ولسـان والدتـه يحمـل عـرش اضمحلالـه ودونيّتـه بـين العالمـين.

- يـاااااااااا عاطـل دايـر حـق المواصـلات ولا حـق الصاعـوط ... انـت دايـر تشـلني مـوش ... اديـك أنـا و انـت المفـترض تسـاعدنى .....انـا ال.....

- هـرب سريعـاً مـن تلـك الكلـمات التـي نزلـت عليـه كمطـر السـوء في تلـك البـلاد التـي تكشـف فضيحتهـا مطـرة، خـرج مـن المنـزل، الحـي عائـم في ميـاه راكـدة كريهـة الرائحـة، صيحـات وشـجار أطفـال الحـيّ عـلى شـاطيء الميـاه الراكـدة ينبـئ بمسـتقبل وطـن.

محمـد جريمـة، طفـل يحفـظ كل الألفـاظ البذيئـة بالفطـرة فقـد تـشرّب وقاحـة الكلـمات مـن ثـدى أمّـه وإعـلام النظـام في توعّـده لمعارضيـه، فُتـح بـاب الشـارع المقابـل لـه خرجـت منـه كتيبـة مـن الأطفـال وصيحاتهـم تصـل إلى آخـر الشـارع تسـيل مـن أنوفهـم سـوائل غريبـة بألـوان مختلفـة، بعضهـم عـاري الصـدر والبعـض الآخـر عـارٍ تمامـاً، خرجـت الـسُرة بـت الشـول متدثـرة بجـمال قديـم تحـت كـمّ مـن الفقـر والعـوز والهـمّ الكبـير أكـبر مـن هـم تلـك المدينـة التـي زاحـم الذبـاب والباعـوض الإنسـان في مسـاحتها، الـسُرة لم تتجـاوز الثانيـة والعشريـن

ولديها تلك الكتيبة من الأطفال زوجها فاقد الوعي دائماً، وبالرغم من أنّه سائق لوزير أوقاف تلك البلاد، إلا أنه صاحب كأس ونساء مثل سيده الذى يحب مضاجعة القاصرات في نهار رمضان.

يحاول أن يتخطى برك المياه من فوق الحجارة المرصوصة على التوالي طريقته تلك تجعله أقرب للاعبي السيرك من مواطن يخرج من منزله، ينظر حواليه جدران المنازل كما الوطن مسنودة على عروق الأشجار الجافّة خوف الانهيار، يتجه إلى مسطبة الحيارى كلّ عطالة الحيّ يتجمّعون على تلك البقعة المحررة من الوطن، هُنا يفرغ كلّ شاب همّه ويبقى همّ الوطن متعرّياً إلى حين إشعار آخراً

(الزعوط) من علي المصطبة يصيح مخاطباً عوض طلقه القادم من اول الشارع : قالوا في تقديمات في لجنه الاختيار يا عمك شكلك كدة حتصل سنّ المعاش من قبل ما تشتغل ....

تنطلق ضحكه سخريه من عوض بعد ان وقف امام الزعوط مباشرةٍ وهو يمسح على رأسه الاصلع بطريقة سريعة وكأنه يلمّع زجاج إحدى العربات تلك المهنة التي اتقنها حيناً من الدهر يجلس محازياً لعامود الكهرباء وهو يقول:-

- تصدق أنا قدّمتَ في لجنة الاختيار دى قريب الـ خمستاشر مرة ودخلتَ معاينة مرة واحدة بس. ينظر عوض طلقه إلى الأعلى وكأنه يسترجع ذكري مريرة ثم استطرد قائلاً :-

- في المرة الوحيدة دى عملو لي معاينة سألوني عن صلاة الجنازة وفيها كم ركعه تصدقوا ياشباب صلاة الجنازة لي خريج كلية الفنون الجميلة .. قلت ما مشكلة .. ما أنا عوض قمتَ بين سينما بانت ومقابر حمد النيل هنا صَبينا طوب اللبنه وحفرنا القبور وفصّلنا الأكفان جدنا عثمان جقود علمنا الحاجات دي قبل ما الناس ديل يحكمونا ، كده قمنا في الحي دا ، اي قبر في امدرمان دي عارفينوا بتاع منو ومات بتين وكل فراش فيك يا ام در رفعنا فيهو الفاتحة ، حفظت القرآن في خلوة شيخ الفاتح قريب الله من عمري عشرة سنة .... أيوه ... أيوه وصفت ليهو طريقة الصلاة مع اختلاف المذاهب الأربعة في التكبيرات والأدعية للميّت والفرق بين الأنثى والرجل في وضع الجثمان وعرجتَ ليهو لحفر القبر وود اللحد والكفن والحينوط وال .....

سكت عوض ونزلت من عينه دمعه تمتم بمرارة

المشكله الناس ديل قايلين الدين بدأ من جيّتهم علينا .... وقلتَ ليهم الكلام دا وطلعتَ ما تميت المعاينه.

مسح عوض على راسه مرة أخرى بتوتر بالغ ولعوض هذا رأس حافي الشعر تماماً مثل صحراء بيوّضه ويتدرّج فقدان شعر رأسه مع سنوات الغيبوبة التي حلّت بالبلاد إلى أن وصل وضع الوطن القاع وهنا فقد عوض كلّ شعره وأصبح رأسه مثل الطلقه فكانت (الكنية).

ومن بين عيون حمراء من أثر الفقر والحاجه كان سؤال عوض إليه

: يا كلـــس عندك صاعوط

جاء رده مقتضباً : والله آخر سفه وجدعت الكيس قبل شويه.

الزعـوط يخـرج كيـس عـماري كاارب يحمـل اسـم (منقـو) ومنقـو في وقـت مـضى كان جـزءاً مـن الوطـن والآن أصبـح مجـرد ذكـرى عـلى كيـس عـماري.

– ياخى معقوله يا الزعوط عندك مثل الكيف دا وما بتقول...؟

– انت ما سألتني والله.....

يمـد الزعـوط كيـس الـتمباك لعـوض بأيـادي مرتعشـة مـن الإدمـان والملاريـا في بلـد أحـد شـعارتها (حنفـوق العـالم اجمـع).

عـوض طلقـه يضـع سـفة عـلى شـفته العليـا وأخـرى عـلى الشـفة السـفلى ويغمـض عينيـه عـلى مضـض ويرخـي رأسـه عـلى الحائـط ، يجلـس عـوض بالقـرب مـن الزعـوط ويـسرح هـو ببـصرة في عـالم اخـر ، مسـطبة الحيـارى معلـم بـارز في الحلـة لحظـات و يتجمـع مـا تبقـى مـن شـباب الحـي بعـد طوفـان الهجـرة الـذى اجتـاح البلـد وفضيحـة الهـروب مـن الوطـن كـرش بـارزة لفعلـة صبيانيـه اقترفهـا النظـام في شـعبه فكانـت أن ضاقـت المـوانيء بالمغادريـن والمهاجريـن ينقطـع حبـل افـكاره عـلي صـوت الزعـوط وهـو يشـير اليـه: الجايـه دي منـو يـا كلـس

ينظر بفضول خجول ويقول

اعتقد دي ساميه بت عواطف أخت محمد بطه.

تتقدم ساميه معطرة سماء المكان باحدى العطور المركّبة الصارخة والتي اشتهر بها أحد محلات (قدر ظروفك) في هذا الحي وفي مشية سامية إغراء واضح ولباسها حازق ومؤخرتها تكاد تقول خذونى، وصدرها يعلن تمرّده ويوقع اتفاق مع نحرها لتصدير مزيد من التوتّر لتلك الأعين الناظرة ، سامية تعرف ما لديها من جمال فترخي غطاء راسها بصورة متعمدة فيظهر سواد عاصمة الوطن الحالك والتي قضت شهوراً فيه دون كهرباء.

ينظر ناحية عوض طلقه والزعوط بدهشه وهو يقول

: انتو ساميه دى جنّت ولا شنو مالها عامله في نفسها كدة ..؟ محمد بطه من ما طفش للمملكة ولا المهلكة البت دي بقت تصرفاتها غريبه.

الزعوط وهو يفلفل شعر راسه الذي في المقدمة بيده اليمنى يقول ساخراً

: والأغرب من دا أنا سمعتَ أنو فسخت خطوبتها من هارون تيه

عوض وهو يرسم علامات الذهول : ياخي قول كلام خلاف دا معقوله !؟ ... تفسخ خطوبته من هارون .. دا دكتور صيدلاني و ود مهذب جداً ومحترم ونظيف ود قيافه خالص موش هو سافر بريطانيا.

الزعـوط :- لا... هـو في فرنسـا غالبـا يكـون طلـب لجـوء سـياسي هنـاك .. بـس السـمعتو إنـو أم سـاميه دى قالـت نـاس تيـه ديـل فوقهـم عـرق ولـو مـا ولدهـا محمـد عـصر و ضغـط عليهـا مـا كانـت وافقـت .. وبطريقـة محلـل كـروي قديـم نظـر الزعـوط إلى أعـلى وأعـاد النظـر كرتـين وأخـذ نفسـاً عميقـا ثـم قـال :-

: اعتقـد دا السـبب الأسـاسي في إنـو هـارون يغـيّر وجهتـو مـن بريطانيـا لفرنسـا ويطالـب باللجـوء اصلـو كـره نفسـه انـت عـارف يـا عـوض ، هـارون دا كان بـصرف عـلي البـت دي فـترة الجامعـه كلهـا وهـو السـفر محمـد بطـة السـعودية اشـتري ليهـو عقـد العمـل وقطـع ليهـو التذاكـر وفي النهايـة باعـوا بالرخيـص وقالـوا فيهـو عـرق و مـن الغـرب .

نظـر ناحيتهـم في ضيـق ورفـع يـده بطريقـه ذات مغـزى واضـح وهـو يقـول :عـرق شـنو وجنـس شـنو، عواطـف دى مـرة فارغـه جـدّا وبتّهـا سـاميه دى سـطحيه جـدّا أنـا عاصرتهـا أيّـام الجامعـه كان عندهـا انفصام، والله تصـدّق كان بتقـول إنّهـا سـاكنه الريـاض، ومـرّة تقـول سـاكنه المنشـيّه، وبتحـب ليـك الأولاد الحناكيـش ديلـك وطـوالى محمـد بطـه دا جايبهـا وكاريهـا مـن كافتيريـات شـارع ٤٢ وكافتيريـات العـمارات الغريبـة ديـك ، أنـا مـا عـارف هـارون دا ذاتـوو كان عاجبـو شـنو .. كان عاجبـو اللحـم دا ..... دا لحـم رخيـص مـا يسـتاهل، دى بـت فارغـه وأمّهـا زيّهـا... سرح بعيـداً، الفـارغ الوطـن وسرطـان العنصريّـه لم يكـن يومـاً متكاثـراً بالانشـطار الـذاتي كـما اليـوم ، إنّـه الطوفـان، وكأنّ القـدر والنظـام عـلى توافـق تـام عـلى إذلال هـذا الشـعب اليتيـم.. نظـر حولـه الزعـوط خريـج جامعـة محترمـة ولديـه ماجسـتير في الإحصـاء التطبيقـى وهـو الآن كمسـاري في حافلـة زوج أختـه ذات الأربعـة والعشريـن

راكباً، عوض طلقه فنّان ورسّام ماهر ، خريج فنون ومبتكر لعدد كبير من الشخصيات الكاريكاتيريّة والتي لن ترى النور في ظلام هذا الوطن الدامس، هو خرّيج كليّة العلوم قسم الكيمياء عمل بمهنة التدريس إلى أن اصطدم أمام مبدأ الدروس الخصوصيّة، وكان الامتحان عسيراً وتوقف عن التدريس مع إشراقة شمس يوم ما عندما اتُهم بخيانة الوطن والجاسوسيّة والعمالة والارتزاق لجهة أجنبيّة ولم ينسَ مدير المدرسة أن يتهمه بالشيوعيّة كلّ ذلك لأنّه قام بتدريس الطلاب دروساً دون مقابل في شتّى العلوم واللغات التي يحتاجونها وبهذا أحرج عدداً مقدّراً من البشر الذين يرتزقون من هذا الإناء، وعندها توقف الزمان وخرج هو منتصرا لمبدئه مضطهداً لحاجته حتى والدته أصبح في عرفها فاشلاً بسبب أفكاره.

تذكّر الجامعة وأحلام الطلّاب بوطن خيّر ديمقراطي وتلك الأناشيد الحماسيّة

(حنبنيهو البنحلم بيهو يوماتي
وطن شامخ وطن عاتي
وطن خيّر ديمقراطي
وطن مالك زمام أمرو
ومتوهّج لهب جمرو
وطن غالي ....)

تذكّـر القاعـة الكبـيرة والمعمـل وشـارع المـين وأركان النقـاش، ارتسـمت عـلى شـفته ابتسـامة عريضـة وهـو يعيـد ذكـرى ثمانيـه سـنوات مضـت ... والرابـط يصـدح بقصيـدة حماسـيه تلهـب الطـلاب :

(اسمعنا يا ليل السجون
نحن بنحب شاي الصباح
والمغربيّه مع الولاد
والزوجه
والأم الحنون
والأصدقاء
وإلى اللقاء..)

يتعالى التصفيق والرابط يقدّم المتحدّث الأوّل

يشـب هـو بخفّـه وأناقـه تحكـى مسـيرة الجامعـه الكبـيرة منـذ غـردون ، يُرتـل بعـض أبيـات حمّيـد :

(حلم العالم ناس تتسالم.. والبني آدم صافي النيّه)

يعـرج في حديثـه عـن الاشـتراكيّة وأنوعهـا ومفهـوم الاشـتراكيّة الديمقراطيّـة وتوافقهـا مـع العدالـة الاجتماعيّـة، واختلافـات المـدارس الاشـتراكيّة ابتـداء بالماويّـة وكارل ماركـس، يتحـدث عـن بنيـة العقـل العربـى وإشـكال الهويّـه في السـودان و نقطـه انطـلاق الشـخصيّة السـودانيّة.. يأخـذ نفسـاً عميقـاً.. يدخـل كادر متحمّـس يلقـي قصيـدة يلهـب بهـا حمـاس الطـلاب مـرة أخـرى ..يتحـدث هـو مـرة أخـرى

يُفَنـد خطـاب النظـام الثيوقراطـي وعلاقتـه بالـتردّي الاقتصـادي وانهيـار المبـادئ وشرخ النسـيج الاجتماعـي، ويُنـذر ببـتر الوطـن إذا اسـتمر الخطـاب بنفـس هـذا المنـوال، يخـرج مـن جَـب أفـكاره بصـورة (رشـا) يغمـض عينيـه في شـجن كـم تتعبـه هـذه الذكـرى ودون أن يـدري أخـذ يـردّد قصيـدة لشـاعر الجامعـة في تلـك الفـترة (سـامي عبدالرحمـن) كـم كانـت هـذه القصيـدة محبّـة إلى (رشـا) وكـم رتّـل تلـك الأبيـات همسـاً في أذنهـا :

إلى من هي الآن
حين وجودك بيني..
لكِ.. التورطُ في انتخابي للتماسك.. بين الآخرين
لكِ.. بحرُ الحروف.. وهو يلفظُ موجه مدّاً لشطٍ
في محاولة التخلص من إضافة
وهو يجذبُ موجه جذراً...
للتزوّدِ ببعض أشياء ...لكِ
لكِ.. الشوقُ حينما يشتاقُ ...
عندما لا يبخل بنفسِه على نفسِه!
لكِ.. انفلاتي من قوانين السطورِ
حين أكتُبُ.. راسماً بينها خطّاً جديداً
لا أخُطُه إلا لك!
ولكِ.. ولهي بك حدَّ الجنون..

ينتفض فجأة إثر موجة من التصفيق الحاد من الزعوط وعوض بعد انضمام على جنكيز وإيهاب فراشه، يتدارك نفسه فقد كان يلقي القصيدة بصوت عالي دون ان يشعر ...

الزعوط : إنتَ بتلقى القصيدة دي معناتا لسّه متذكّر (رشا) يا كلس

إيهاب فراشه : أنا ما كلمتك؟ أنا ما لاقيت رشا مع راجله في عمارة الدّهب معاهم طفلة صغيرة شكلها بتها بس بتشبهك يا كلس..بتكون اتوحمت بيك ....

وأطلق بعدها ضحكة قويّة .. (إيهاب فراشه) شخصيّة غريبة له رأس أقرب لسرج العجلة، وعيون مدفونة، ووجه مليء بالتجاعيد، يقال إنّه قد أصيب بالجدري في صغره ، فاجر وبذئ اللسان

سحب علي جنكيز نفساً عميقاً من السيجارة التي في يده، نوعيّة رديئة من السجائر ذات رائحة كريهة وأخذ يدندن بصوت أقرب لصوت مصطفى سيد أحمد

والله ايام يا زمان
ببكي واتحسر عليك
وما بقول العشنا كان
وأرمي حبة لوم يجيك
لسه راجيك يازمان
بحبة الذكرى المعاي
عايشة في وجداني جوة

ولسه بتدغدغ حشاي
يمكن الحبيتو مرة
يلقى فى كلمات غناي
فاصلة بتصحي المشاعر ..
ويمكن الطول سهادو
تغشى ليلاتو البشائر ..
ويمكن الفرح الزمان ..
لسه أصداه بترن ...

وتحـول التجمـع الى مهرجـان مـع الاغنيـة بعـد ان مسـك الزعـوط الايقـاع ، واخـذ المقطـع الاخـير يعـاد كل مـرة

(ويمكـن الفـرح الزمـان لسـه اصـداه بـترن) في اشـارة الي رشـا وفجاءة اتـكأ الجميـع عـلى حائـط الوطـن بـكاءً.. وسرح هـو مـع شـجن الذّكـرى ومـرارات كلـمات الأغنيـه .. تدحرجـت دمعـة قهـر مـن عـين جنكيـز وخرجـت زفـرة حـزن مـن فـم عـوض طلقـه .. الجميـع كان يعلـم قـوّة العلاقـه مـا بينـه وبـين (رشـا) وحـال القـدر والوطـن مـن نهايـه طبيعيـه لهـما وكانـت التراجيديـا المحزنـة أن تزوّجـت (رشـا) مـن ضابـط اسـتخبارات تفنّـن في تعذيـب البـلاد والعبـاد.

قطع صمت الجميع الزعوط برعونته المعهودة وهو يقول:

- والله أفضـل ليـك يـا كلـس، وكويـس إنّـك مـا عرسـتها زاتـو بعديـن هـو زاااتـو عـرس شـنو ليـك وتعـرس لي شـنو ؟

جنكيز راسماً على وجهه علامات تعجب : كيف عرس شنو إن شاء الله يجيب لهو أولاد ينفعوه في كبرو يا الزعوط

انطلقت من فراشه ضحكه تهكّم وهو يلوّح بيديه الاثنين ويقول :

أولاد عشان شنو ينفعو عليك الله في دينك (ودينك هذه كان عليها تغليظ متعمّد من فراشه فخرجت كأنها سب أو شتيمة وليست حليفة) إنتَ نفعتَ أبوك ولا أمّك بي شنو يا جنكيز؟ من ما قمنا أبوك عندو الزريبة بتاعة الفحم ولحدّي هسّي الناس سابت الفحم وبقت في الغاز وأبوك لسّه بتاجر في الفحم وأمّك فراشه في مدرسة (عثمان بن عفان) من ما كان اسمها مدرسه (المجد) إنتَ نفعتهم بي شنو.

عوض طلقه محاولاً تهدئة الوضع حتى لا يتشاجر جنكيز مع فراشه

: الموضوع ما كدة يا فراشه ياخى نحنا فاض بينا عديل كدة، أنا حلفتَ ما (أهبش) بت إلا في عرسي، وصلت الاربعين ولى هسّى ما قادر على العرس .

انطلقت من الزعوط ضحكه (قدوريّة) تحكي عن سوق البنات في ذلك البرنامج الغنائي الشهير : وصلت كم سنة ..؟... اربعين ..؟ .. إنتَ يا عوض ما وصلتَ سن اليأس عديل كده.

ضحك الجميع من تعليق الزعوط الذى واصل حديثه : بعدين عرس شنو أنا كل يوم قاعد أعرّس وما بهبش بت ذاتووو.

صمتَ الجميع ونظر هو إلى الزعوط وسرح مع تلك العقدة التي انفتحت بحديثه الفاضح، فالكل يعلم عشق وإدمان الزعوط لذلك النوع من الجنس الرخيص فيكفي أن يستدعى صورة فنانة عربيّة أو ممثله ويدخل بعدها الحمام ويمكث فيه مناجياً لذّته في محراب صلاته الخاصه تلك، وفي هذه الأثناء يطرق إخوته باب الحمام، إمّا لقضاء حاجة أو للاستحمام، وسط خشوع تام من الزعوط داخل الحمام، وماتم تداوله أبان مراهقه الزعوط لأمر معروف حتى لنساء وبنات الحي.. ففي نهار غائظ من شهور الوطن شديدة الحرارة، والتي أصبحت متشابهة الدرجات في كلّ العام.. دخلت والدة الزعوط إلى الحمّام وهنالك في ركن قصى عند الوادي المقدس خلع الزعوط نعليه، وارتكز بطريقه معيّنة مناجياً لذته في استمناء واضح وأمامه مباشرة كانت صورة لفتاة عاريه تماماً مصلوبة على صليب يحمل خطايا المقهورين والمضطهدين من شهوة الجنس في وطني .. وفي تلك اللحظه التي ولجت والدة الزعوط إلى الحمّام كان هو قد بلغ من الشهوة عتيّا ، ومن اللذّة ما يضاهي سماع الصوت عند جبل الطور والصورة العاريه تخاطبه بصوت مسموع ألم تؤمن بعد يردّ على صدى صوت الصورة

بلى ولكن ليطمئن فرجي....

وفي لحظة الحسم هذه صرخت والدته.

: سجمي يااااولد انت بتعمل في شنو..... والله الليله إلا أكلّم ليك أبوك

ودون أن ينظر إليها وحتى لايخرج من حلمه كما خرج يوسف من سجنه دون أن يلمس زليخه زوجة العزيز ردّ عليها بتلقائيّة انسياب يديه في رحلة الشتاء والصيف على أشيائه - كلّمي .... كلّمي كلّمي .... كلّمي ... ومن يومها أصبح الزعوط واسع الشهرة في هذا المجال

أغمض عينيه في ألم وسرح مع مرارة الواقع .. ولمن تكون الشكوى والقضيه لم تكن محصورة في شخص الزعوط بل هي مأساة جيل كامل اختلط صبره مع ألم الحرمان والقهر والحاجة فتشتت ما بين الامل والضياع.

قطع أفكاره تلك صوت الجوكس وهو يصافح الجميع

: يا عمك كيف سارح وين ....؟

: والله سارح في الهم بتاع البلد دي يا الجوكس كيف إنتَ وكيف أخبارك

يرد الجوكس بانكسار واضح : مدردقه ماشّه الحمدلله الصبر بس ..

الجوكس زميل كفاح قديم وكولجني لايشق له غبار وهو أيضاً صاحب نكتة ويعطى للمجالس نكهة، وبرغم جسده الضخم و كثير ما كانت التظيمات الطلابيّة الأخرى تسخر منه وتصفه بكادر العنف إلا أنّه كان من أكثر الكوادر ثقافة وحباً للاطلاع، وأكثرهم اعتقالاً ..لم ينكسر الجوكس إطلاقاً ..ظل شامخاً مثل وطن.

نظر ناحيته يبدو أنّ الجوكس يهمّ بالهروب أو الهجرة خارج الوطن، عرف ذلك من خلال جواز السفر الذى على الجيب العلوى للقميص، يحمل رواية، تناول الكتاب من يده.

(قواعد العشق الأربعون) الجوكس متسامح حتى في قراءته للروايات فهو يختار ما يقرأه بعناية.

: برضو التصوّف والتسامح والحب يا جوكس ..

يرد الجوكس بلطف : لازم من الحب ولو مافي محبّة مافي الحبة يا كلس ..

شمس التبريزي، جلال الدين الرومي . تُرى لو كنتم في وطني الآن هل كان لتلك القواعد من طريق أم تتلاشى كما تلاشت كثير من الأشياء الجميلة هنا . الزعوط وهو يضع يده كعادته دائما على شعره ويفلفل مقدمته : إنتَ (الركشه) وين يا جوكس الليله ؟

يرد الجوكس وعلامات الاستياء على وجهه : البوليس الأبيض ما سايبنا في حالنا بقينا زى بتاعين البنقو.. نتجارى من حارة لى حارة ، ينظر عوض طلقه إلى أعلى وكأنه يخاطب السماء من ظلم البسيطه.. نزلت من عيني الجوكس دمعة حزن ساخنة بسخونة تلك الأجواء التي تهيمن على الوطن، ويواصل من غيمه ضباب الحزن التي ضربت كلّ الحضور..

: البلـد دي خـلاص مـا بقـى فيهـا شيء يصبّرنـا عليهـا حتـى حلـم التغيـير بقـى سراب أنـا شـكلي كـده خـلاص مغـادر الأرض دي برغـم اعـتراضي التـام عـلى فكـرة الخـروج بـرة البلـد.. بـس شـكلو أمـر واقـع، تصدّقـو قبـل يومـين تـمّ جلدنـا ... وخرجـت تنهيـدة حـارّة مـن صـدر الفراشـه ..والجوكـس يواصـل حديثـه

- تصدقـو قبـل يومـين جلدونـا لأنّـو مـا مرخصـين (الركشـات) جلدونـا اربعـين سـوط حـد السـكر ، بلـل الدمـع عيـون الشـباب في مسـطبة الحيـارى، نظـر ناحيتهـم وتفـرّس في ملامحهـم تُـرى هـل هـي دمـوع فـراق الجوكـس أم بـكاء عـلى وطـن مفقـود، خيّـم جـوّ مـن السـكون والكآبـة عـلى الجلسـة وصيحـات أولاد الـسُرة بـت الشـول ترجـع صـدى مسـتقبل واعـد لهـم، وأمامهـم محمـد جريمـه يطلـق ألفاظـه البذئيـة قائـلاً:

: البقدر انط الجدول دا يلحس كوعو... يا لوايط....

سرح هـو بعيـداً مـرة أخـرى.. ذهـب بخيالـه إلى خالـه وذكـرى أمدرمـان.. لم يكـن هنالـك مـن يفكـر بالهجـرة أو الاغـتراب عـن تلـك البقعـة تبـدّل الحـال الآن ..الجميـع في هـروب جماعـي أشـبه بنـزوح الحـروب، الوطـن يفـرغ جوفـه مـن شـعبه، أمدرمـان الآن تهجـو أبناءهـا هـل كنـت تشـير إلى هـذه الفـترة محمـد الواثـق ....؟

(سألت مالك يا أم درمان مهمومه؟
علام تبدين طول الدهر واجمة
متى سترحل عن ظلالك البومه؟

زالت بشاشتنا ممّا نراك به
تلك البشاشة قد كانت لنا سيمه
قالت لقد دبّت الأسقام في بدني
واستحكمت في هزيل الجسم جرثومه)

وكيف استحكمت الجرثومة في جسد الوطن ثلاثون سنة الم يكن هنالك مضاد حيوي قادر علي استيصالها ....

يتذكر طفولته في أمدرمان وجدّه لأمّه تلك الشخصيه النادرة ..كان يلزمهم هو وإخوته بترتيب بروش السعف في فسحة الزاويه لصلاة المغرب وفي طريقه للصلاة كان جدّه يتفقد كلّ بيوت الحي ودالماحي، وعباس الخليفه، وطمبل، نزيه، حجازي، عم تيه، وغيرهم من رجال الحي، (عباس ولع) كان يأتى لصلاة المغرب وعلى رأسه قليلاً من البلل كأنه يقول لجدي هذا من أثر الوضوء لو كنتم تعلمون، ولقّب عباس ب (ولع) لأنّه كثير الشراب وكان عند اكتمال سكره يقول : خلاص كده أنا ولّعت ومن ثم يبداء في ترتيل صلاة الفاتح كاملة ويعقبها بخشوع وصوت حزين بديع يقوم بمدح الانشاد العرفاني لقصائد تشمل علي المعاني والعبر بالله ورسوله

عليك صلاة الله ثم سلامه ألا يا رسول الله أني مغرم
يقول لي المعشوق لا تخشى بعد ذا حجابا ولا طردا فعهدي متمم
متى ما أردت القرب مني فنادني ألا يارسول الله أني مغرم
أناديك من بعد وإني جليس من بحبي مشغول بذكري مترجم

ويغرق عباس ولع بعد الانتهاء من هذه القصيدة في بكاء حار وهو يردد يا حنان .... يا منان .... ارحمني ... ارحمني ..... لم يكن عباس ولع مدمن خمر بقدر ما كان صوفي متمرد يحب الرسول فالجميع يذكر ان عباس ولع اختلف مع جدي يوما في مسألة الُسَكر هذه فقال جدي له انت ما حبيب للرسول بسبب شربك للعرقي ، بكاء عباس يومها مثل طفل فقد امه وظل يقول لجدي ان حبيب الرسول انا حبيب الرسول و ظل تلك الليل شديدة البرودة في الشارع يردد اللهم صل وسلم علي رسوالله و (يجقم) من باقه العرقي امامه الي صباح اليوم الثاني

تحدث مع نفسه بهمس : هنا في تلك الجغرافيا من هذا الوطن والتي تسمى أمدرمان لم نشعر بالفوارق الطبقيّة التي عدّدها كارل ماركس، وما كانت للثورة البلشفيه أن ترى النور في مثل ذلك المجتمع الذى ترعرع فيه ، ولمثل قول (حداشر ونوباويّه) لامكان له هنا، لأنّه لم يدرِ معنى (النوباويّه ولا الشايقيّه ولا الغرباويّه)، هنا في تلك المساحة توحّد جُلّ الوطن فكانت كلّ منازل الطين مفتوحه الأبواب، وكلّ رجال الحي هم آباؤهم، هو الآن يتذكّر (نزيه القبطي) الذى غادر منذ زمن، يتذكر (نزيه) جيّدا في رمضان، فقد كان حاضرا خلال الثلاثين يوماً بصينيّه (مدنكلة) بالعصيدة وسلطة الرّوب وبعض الأطايب من اللحوم ما شكّ في دخول نزيه جنّة عرضها السموات والأرض، ولم يخالجه ظنّ في ذلك.. ولكن كانت حيرته دائمه في سؤال بينه وبين نفسه

لماذا جدّه لا ينهر نزيه وقت صلاة المغرب ...؟ ولماذا لايصلي نزيه معنا ؟

نزيه كان يكتفي عند وقت الصلاة بعد الإفطار بأن يأخذ مكانا قصيّاً ويشعل سيجارته ماركة (التاج) ثم يأتى بعد الباقيات الصالحات نحو جدّي مبتسماً وهو يقول : حرماً يا حاج.. ويقوم بصبّ قهوة من إبريق أعدّ خصّيصاً من أم رمسيس زوجه نزيه ..يصب القهوة ويعطى جدّي أوّلاً ثم يصب البقيّة في فناجينهم وسط ضحكات عم نزيه وود الماحي ومداعبات عبّاس الخليفه لجدّي، يتذكر جيّدا منزل عم نزيه وهو ينظر إلى ذلك الجسد المصلوب وعيونه ترقرق حزنا ويتدفق منها دمع حار يتوقف مع تلك الصورة لهذه الأم الحنون والتي تحضن طفلها الصغير في حنان بالغ، في هذه البقعة عرف يسوع والمسيح ..عرف مريم العذراء والمجدليه، تأتى في مخيّلته صورة لمريم ابنة عم نزيه كانت فاتنه الجمال ولها حشمة نادرة، وكانت عندما تضع طرحتها على رأسها تزداد ألقاً ووقاراً، تزوجت مريم نزيه في عيد الأضحى بامدرمان من أحد شباب الحي (احمد ود البكري) أمّه سنية بت جقود .. هكذا وصفته جدّته لأمّه يومها ، عقد الزواج بجامع الشيخ الإدريسي بالموردة وبورك بالكنيسه من (ابونا) ، في تلك البقعه التي تم تلويثها الآن تلاقى الوطن وتسامحت كلّ الأديان، احسّ بضيق شديد يجثم على صدره وهو يرجع بذاكرته إلى هجرة نزيه وأسرته إلى امريكا بعد إعدام أخيه جرجس في دولارات معدودات.. يومها تنازلت أسرة نزيه عن كل ممتلكاتها من أجل إخلاء سبيل أخيه الطيّار الذى قدم من إحدى رحلاته وفي جيبه حفنة من الدولارات، وعندها أقسم حاكم الوطن (طلاقاً) بأنْ يتم إعدام الطيّار، تدخّل جدّي واسع النفوذ، وتحرّك رجال الحي أفواجاً للتوسط لإطلاق سرح ابن الحي الطيّار، وحتى والد الجوكس والذى كان يومها ضابطا برتبة كبيرة تدخّل للتوسّط عند الحاكم باسم الرب لإطلاق

جرجس، وما كان من أمر الحاكم عجبا بأن أمر بإعدام جرجس، وتوفّى جدّي غبناً وحزناً على عهد جديد يرى تفاصيله القادمة في هجرة كلّ أسرة نزيه، ولم تمضِ سوى سنوات عجاف أخرى تحت راية ظلّ الله في الأرض وشرع الرب، حتى شهد الحي فاجعة جديدة بإعدام والد الجوكس صبيحة يوم العيد ومعه ٢٨ ضابطاً آخرين ، يومها لم يعِ الجميع ما يحدث إلا أنّ ذكرى والد الجوكس ظلت حاضرة هى ورائحه قهوة أم رمسيس ذكرى بطعم الدم في حلق الوطن مع هستيريا الهوس وصيحات الموت واصبح لون الوطن احمر كريه ، نظر حوله بعد أن سلّم من صلاة ذكرياته وجد الدموع هى القاسم المشترك لرجال اليوم، نفض عنه غبار نضاله القديم وسط دهشة رفاقه وتحرك نحو الشارع الرئيسى نظر ناحيه مسجد الإدريسى ساحة المسجد خاليه من حفظة القرآن الكريم ..تقدّم نحو الشارع الكبير (فريق ريد) تاريخ وطن يقف عاجزاً عن دحر الاستعمار الجديد نظر يمينه نهاية شارع الموردة ساحه الخليفه ومسجد وقبّة الإمام والذى استبيحت بقعته في زمن الغفلة باسم الدين.. يا مهدي الله قم الترك من جلدتنا ويتحدثون بلغتنا اليوم، تحرّك راجلاً نحو شارع الأربعين إلى أن وصل حى أبوكدوك اسم رجل بقامة وطن، همهم في نفسه تُرى إذا كان مثل هؤلاء الرجال على قيد الحياة كيف سوف تكون ردة فعلهم مع من دَنَّس اسم المؤسّسة العسكريّة ورقص على أنقاض وطن ..؟

وصل إلى مقابر حمد النيل أراد أن يطلّ على قبر جدّه.. هو الآن في حوجه لمناجاة خاله، ما قدّمه الشيخ حمد النيل وهوتحت قبته للوطن أكثر مما قدّمته الحكومات المتعاقبة لهذا الشعب.. هنا يلقى الجائع لقمة والتائه ملاذاً والعاري غطاءً ، هنالك على قبر جدّه

نبتت شتلة نخلة صغيرة، نظر ناحية قبر خاله وجده مبتور من الوسط نصفه الأخير منبوش فعرف أنّها النهاية.

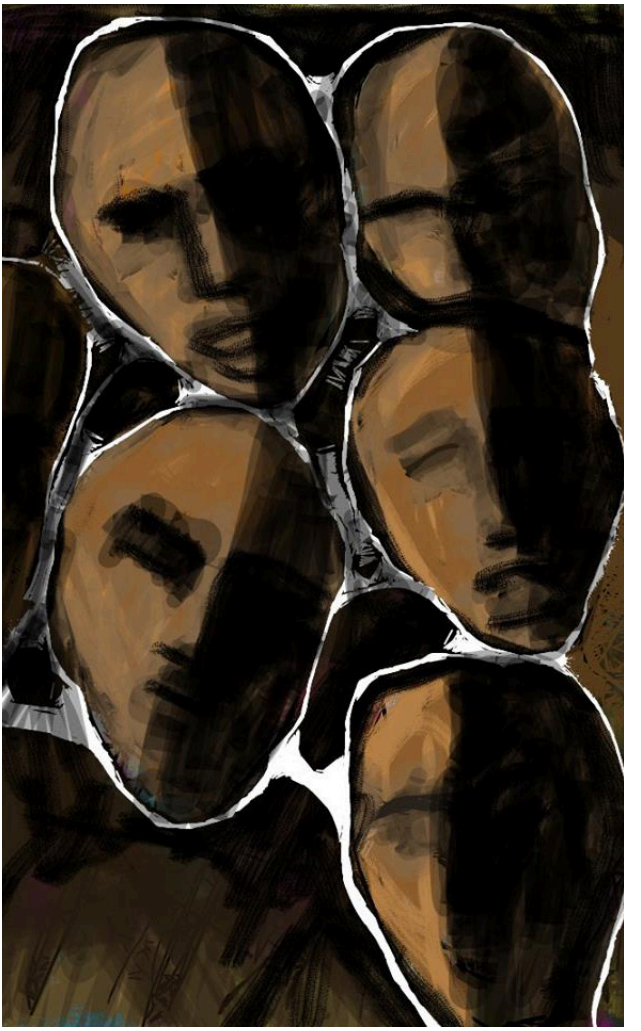

موت بطل الرواية

الصدفة وحدها جعلت الصُحفي ومؤلف الروايات الشهير في البلاد الكبيرة يقرأ النعي المنشور بالصحيفة التي يعمل بها، النعي يحمل صورة وإسم بطل روايته الأخيرة التي لم تكتمل بعد. .

تظهر علامات الحيرة والدهشة على وجه المؤلف، إذن فقد مات إسماعيل حامد في ظروف غامضة تحمل مخاض الكتابة المتعثرة والكلمات الباردة، مات إسماعيل حامد وترك بقيّة صفحات الرواية بيضاء من غير سوء، همهم المؤلف بقلق وتحرّك متوتراً بمكتبه بالجريدة والتي توسم بأنّها يومية اجتماعية مستقلة، عفونة المجاري والذباب يتقاسمان وطن المؤلف مع فساد المسؤولين، وهتك بكارة الفتيات سرح المؤلف في شخصية روايته الأخيرة وتساءل

تًرى كيف توفّى البطل هكذا فجأة دون حتى أن يخبره بأنه ماضٍ، ماذا سوف يكون مصير زوجته زبيدة وبناته من بعده ..؟

إنّه يعلم جيدا كيف كانت معيشة إسماعيل حامد هو ربّه الذي صنعه في خيال الرواية وأعطاه الاسم وزوجه زبيدة آآآآه زبيدة الحلم الجميل، هو لا يدري لماذا زوّجها لإسماعيل حامد. شخصية زبيدة من الشخصيات التي اجتهد فيها كثيرا، لها أنوثة طاغية هو

يتذكر جيدا عندما تحرّش بها فصدّته بقوّة إنّه لأمر مضحك أن يتحرش مؤلف بأحد الشخصيات الخيالية، انتقم المؤلف لكرامته بأن جعلها تتوسل اليه في احد فصول الرواية عندما تركها وحيدة في شارع مظلم يومها ترجته زبيدة بان يخرجها من هذا المكان رفض حتي ينال ما يريد ضربته على راسه في الرواية فظهر اثر الضربة ورماً بدم في الحقيقة يتحسسه دائما

أحداث الرواية تدور كلّها في أحد الأحياء الفقيرة على تخوم المدينة الكبيرة.

تمدَد المؤلف على أريكة متهالكة من ممارسة الجنس بمكتبه بالجريدة، تناول بعض الأوراق من روايتة الأخيرة تمتم ببعض كلمات..

نعم هو خالق ذلك الكون الخيالي هو ربّ البطل وكلّ شخصيات الرواية

(حاج عبد القادر، وزوجته البتول ، حسين المعرّص ، قرشي اللوطي حتى سعديّه الحلبية، وشلة يخسي) كلّ شخصيات الرواية التي لم تكتمل .. كيف تموت شخصية في إحدى الروايات دون علم الكاتب، نظر إلى تلك الأوراق التي في يده، جزء من حوار بالفصل الثالث

إسماعيل حامد يجلس أمام دكان حسين المعرّص (هكذا أسمته شلة يخسي) يجلس على بنبر صغير يقلّب الجريدة التي يعمل بها صُحفي، يقلب الصفحة الأولى وعلى الثالثة خبر خجول كتب

على استحياء بعيدا عن عين الرقابة التي طالت كلّ شيء في وطن إسماعيل.. الخبر مبهم (مدير الجمارك في البلاد الكبيرة أحُيل إلي المعاش) يفكّر في الخبر كصُحفي متمرّس لابد أنّ هنالك شبهة فساد بل لابد أن يكون وراء سبب الإقالة وليس المعاش لابد أن يكون اختلاساً أو استغلال المنصب، وغالبا ما يكون مدير المكتب شريكاً في النصب والاحتيال سيناريو مًعاد منذ (موسى والخضر) عندما التقيا عند مفرق النيلين، هكذا حلّل إسماعيل الخبر، في هذه البلاد أصبح الفساد مرادفاُ لكلمة الحكومة لا يوجد فساد إلا فساد المسؤوليين الذين يصرّحون دائما بضرورة محاربة الفساد، تبسّم إسماعيل في استياء واضح من ما وصل اليه حال البلد .

حاج عبد القادر ينزل من على الكارو (الأتان) مرهقة على ما يبدو أنها حامل، فحمار حاج عبد القادر أنثى وليس ذكراً، ولهذا قصة يستحى إسماعيل حامد الخوض في تفاصيلها احتراماً لجاره. يرفع حاج عبد القادر يده ويصيح: السلام عليكم ياااا ناس. يرد حسين المعرّص :- كيفك ياآآآآآالحاج إن شاء الله مافي عوجه ....الرجعة من بدري كده ...؟

يتجاهل عبدالقار سؤال حسين ويدلف إلى حوش بيته، سور المنازل في تلك المناطق فقط لمنع الغنم والكلاب الضالة وليس للسترة فهو قصير بمكان، المنازل لها أيضا تصميم غريب مثل الحرم المكّي حيشان كبيرة وغرفة وحيدة في منتصف المنزل تماما كغرفة العمليات التي يخرج منها زيادة البلاء للإنسانيه في شكل بشر، والحيشان الكبيرة لتربية الأبناء وسعاية الأغنام، ينظر إسماعيل حامد ناحية الدكان، حسين يجلس على صندوق مياه غازية مقلوب على عقبه

يذكره هذا الوضع بحالة الوطن الذي انكفأ على الذات حتى يتثنى لحزب الحكومة الجلوس على ظهره والعبث بمؤخرته حتى اتسعت.

يحاول إسماعيل استدراج حسين في كلام جاد بدلاً من حديثه الفارغ ومعاكساته لنساء الحي المارات من أمام الدكان :- أنت عارف يا حسين إقالة مدير الجمارك دي بتكون وراءها بلاوي كتيرة صاح.

يرد حسين ونظره يلاحق بتول بت الشّول زوجة حاج عبدالقادر وهى تصلح ثوبها على رأسها وسيقانها مثل الأبنوس تبرزان تعمداً تحت الثوب القصير:

والله أنا العارفو كلّو... إنّو البلد دي بقت كلّها (حِشَّير) أىّ زول شايل عجلو ده و دايز يرضعو ... كيف البلد ما يكون فيها بلاوى.

ينظر إسماعيل مندهشاً ..نعم حسين مشهور بألفاظه البذيئة وهو كثير المعاكسات لنساء وبنات الحي وتجمعه علاقة غريبة مع قرشي تجزم (شلة يخسي) بأنها قائمة على الشذوذ، سبب اندهاش إسماعيل ليس في انحطاط لغة حسين المعرص فهو أمر عادى ولكن في جرأة مخاطبته بتلك الصورة، فقد تعوّد أن يخاطبه حسين باحترام وأن يسبق اسمة بكلمة أستاذ دوماً، لماذا خاطبه بتلك الصورة؟ هل هي ضرورة اختارها المؤلف لشحن الرواية بألفاظ تزيد من سرعه انتشارها، إسماعيل حامد على علم تام بأنّ مؤلف شخصيته مدير تحرير بأحد الجرائد الصفراء، كما يعلم تماما بأنه معجب حد الشبق بزوجته زبيدة فقد رسم تفاصيلها بكلمات أنيقة وأسهب في شرح تفاصيل جسدها، هل يعقل أن يعشق أحد خيالا ؟ وهو في

حيرته تلك يرجح بان سبب تهجم حسين وعدم احترامه له غالبا ما يرجع إلى أن مديونيته قد زادت عن الحد

يخرج من تخمينه هذا على صوت فاجر يلتفت ناحيته.. سعديّة الحلبيّة فتاة تبلغ الثامنة عشرة من العمر، فارعة وعالية مثل سيارات الوزراء لها لون يميل إلى الذهبي قليلاً وقفت سعديّة على باب الدكان ونصف ثوبها على يدها والنصف الآخر مربوط على خصرها، يطلّ صدرها النافر من فتحات فستانها الشفاف بعد أن فتحت منافذ له بفتح الأزرار العليا فظهرت قباب الأولياء الصالحين بيضاء من كلّ ذنب أو إثم، وأعلى القبة تفجرت أعلام حمراء داكنة متشربة تطوف حولها الأعين بالدّعاء، وهناك بين مفترق القبّتين كان الحجر الأسود متدلياً من عنق سعدية يقف شاهداً على ورع نظرات حسين المعرّص التي تسمّرت وكأنّ جنّا مسّه تصبّب حسين تعرقا وأخذ يعَض شفته السفلى في تجلّى حوار متفاني في خدمة شيخه والدراويش خلفه يردّدون الراتب في خجل ، والخلخال الذي على رجل سعدية يعطى الذكر نغمة الوجود الزمام على انف سعدية يبرق مع كل شهيق وزفير وينتفض معه قلب حسين

(سعدية ... سعدية الحلبية خليفة الله في الأرض) انتصبت أشياء حسين واقفة حتى بانت تحت العراقي الذي يرتديه فأصبحت مثل كمشه الفول، وانتهزت الحلبية فرصة غيبوبته تلك وأخذت تطلب ما قيمته تفوق مرتّب إسماعيل حامد والأخير يفتح عينيه في ذهول من (كبكبة) حسين الذي انطبق عليه لقب (المعرّص) تماماً، أخذت سعدية ما تريد وانصرفت دون أن يأخذ حسين ما يريد حتى أنّه نسي أن يسجل ما تم جرّه من دكانه.

قلّب إسماعيل كفّيه في حسرة على حال الوطن، وداخله يغلي، لماذا اختاره المؤلف أن يكون بطلاً لهذه الرواية، همّ بالمغادرة من أمام الدكان، توقفت (ركشة) نزل منها قرشي بدلال واضح يتنافى مع ملامح شكله القبيح. لقرشي أنف أفطس وشفاه اصطلاحاً فهي في حقيقة الامر (شلاليف كبيرة) حتى إنّه يقال أنّ نملة صغيرة كانت تمشي على شلاليف قرشي اعتقدت في بادئ الأمر أنها مؤخرته، قرشي أصلع الرأس فهو مثال حيّ على صحة النظرية الداروينية ، يبدو أنّه اجتهد كثيرا حتى يصلح بعض ملامحه، فقام بتسوية حواجبه وتخطيطها بصورة ماجنة، كما اهتم بنظافة وجهه حتى أصبح هنالك تباين بينه وبين بقية جسمه، فوجهه أصبح رمادياً، ولقرشي سنّ من ذهب، ومؤخرة مثل مؤخرة النساء، كما اشتهر برقصه الماجن في الحفلات وجلسات (الظار) قرشي يرمي الودع وبارع جداً في الطبيخ، تقدّم قرشي نحو إسماعيل فزع الأخير من منظر الرجل بهذا الشكل فهرب سريعاً رغم أنف الكاتب الذى حاول جاهداً أن يوقف إسماعيل حتى يتثنى له مشاهدة ما سوف يكون بين حسين المعرّص وقرشي، نظر إسماعيل ناحية حسين فوجده مهرولاً اتجاه قرشي بصورة تبرهن على شكوك العلاقة بينهما، هرب ود حامد سريعا وهو يسبّ المؤلف بأن جعله في هذا الموقف الحرج.

يضع المؤلف الورقة الأخيرة من الفصل الثالث على الطاولة ويخرج من خيال الرواية مستغرباً سْب إسماعيل حامد له، يتوقف في شخصية اسماعيل، رجل ملتزم وصحفي مثقف، هل يعقل ان يكون إسماعيل قد خرج إلى الوجود واتخذ ربّاً غيره، يدبّر له شؤونه بعد أن فقد الأمل في كاتب الرواية ومبتكر شخصيته؟ جلس

المؤلف يفكر بعمق ويسترجع ما كتبه في بداية القصة عن إسماعيل، كيف صوّره وركّب حياته بزواجه من زبيدة ومهنته وكلّ تلك الأحداث، ويظلّ السؤال: كيف مات إسماعيل؟ ما هى تراجيديا رحيله المفاجئ بهذه الصورة الغامضة؟ يخرج من جبّ افكاره بصوت طرقات على باب مكتبه صوته يخرج مرهق من التفكير :-

- ادخل .....

يُفتح باب المكتب، تدخل أنثى في حوالى السابعة والعشرين ترتدي بلوزة سوداء واسكيرت أبيض، على ملامحها جمال وأنوثة طاغية، تقف أمامه بعد ان أحكمت غلق الباب خلفها، يقف المؤلف في خوف واضح وتتسمّر نظراته على من أمامه، يفتح عيناه في هلع حقيقي لايقوى على النطق .....

يخرج صوتها مكتوٍ بالحزن : أعتقد أنّك تعرف من أكون.

ينهار الكاتب على مقعده ويضع يده على رأسه لابدّ أنّه في حلم .... لا .... إنّه في حلم حقيقي، كيف لها أن تظهر له على الواقع، يقول في سرّه:

- كيف لا أعرفك لقد صنعتك بقلمي ورسمت كلّ تفاصيلك بالكلمات على ورق

يصرخ :- بس أنتِ خيال ... مجرّد وهم ما مكن تكوني حقيقة ... زبيدة زوجة إسماعيل حامد مجرد خيال كاتب ليس إلا ..

تجلس زبيدة على الأريكة التي طال ما تمنّى المؤلف أن تتمدّد فيها تلك الشخصية عارية، وضعت ساقاً على الأخرى، بانت تفاصيل ساقها كما كان يصف دائماً، صدرها فاكهة كثيراً ما تمناها.

نظرت إليه في تحدّ هى الآن تتحدّى الربّ بجنون أنوثتها، وهو يقف مضطرباً أمامها .... لابدّ أنه قد أصيب بالجنون، يعيده صوتها إلى حظيرة الواقع الذى يحاول أن يهرب منه.

: أنا عايزة زوجي يرجع تاني موش إنتَ الخلقتو ... نهاية إسماعيل حسن لازم تكون غير كده يرد هو بارتباك : يا الله ماهذا الجنون كيف يستقيم هذا....

زبيدة وبإصرار واضح : عندك لحدي بكرة زوجي لازم يرجع أو إنتَ عارف أنا ممكن أفضحك ....

يردّ وحالة الذهول تسيطر عليه تماماً : أنا ما عارف هو رحل كيف أساساً .... أنا محتاج ليهو أكتر حتى أتمم الرواية ...و..

تقاطعه زبيدة باستغراب : ما عارف رحل كيف؟ ترميه الرميه دي في حي مع أمثال (قرشي اللوطي) و(حسين المعرص) و(سعدية الشرموطة) وتشغلو صحفي في بلد زي البلد دي وتقول ما عارف رحل كيف ؟... اسماعيل .. مات بالذبحه..... مات مقهورا

تفق زبيده وترفع يدها اليمنى تجاه المؤلف محذرة

اسمع إسماعيل لازم يرجع تاني ... أنا عارفة كلّ فضايحك، وعارفة إنت بقيت كاتب كيف. وعلاقتك المشبوهة مع حكومة الفقر دي. ومغامراتك مع الصحفيات مافي متدربة ولا صحفية ما شحتها والكنبة دى تشهد ... وضربت بيدها على الأريكة التي امامها وهي تقول : أنا وإسماعيل شاهدين على كل تفاهاتك كنتَ بتخلي الرواية في مكتبك وتعمل عمايلك الوسخة مع النسوان البجوك ، وتدور اجتماعاتك السياسية بإسم المكتب الاعلامي لي حزبك التافه دا عامل فيها وطني وبتكتب ضد الحكومة...

تنظر إليه بطرف عينها رموشها موس تجرح قلبه.

تقول ساخرة :- اكلمك عن ملفات الفساد البجيبوها ليك ويقولوا ليك احرق فلان ولا عن قضايا الراي العام البتعملوها هنا وتطبخوها انت ومعاك

(شلة اقلام تحت الطلب) ضد شخصيات مُحدده من قبل جهاز الامن للبلد دي ... اضيف ولا كده كفاية .....

ينظر إليها في هلع يتمتم في حيرة بس إنتو مجرد خيال في الرواية، أنا العملتكم بى قلمى دا..

ترمقه زبيدة بنظرة استخفاف وتتحرك ناحية الباب وتلتفت اليه وتقول :-

عنـدك إلى نهـار الغـد وحتعـرف إنـو نحـن خيـال ولا واقـع ، تخـرج زبيـدة وتغلـق البـاب مـن خلفهـا.

يظـل المؤلـف شـارد البـصر وكأنّـه في حلـم ينظـر ناحيـة الأريكـة هنالـك أثـر لجلـوس شـخص مـا يتحـرك ناحيتهـا يضـع يـده عـلى التعرّجـات التـي عـلى الكنبـة، المـكان دافىء يخرج مـن مكتبـه سريعـاً لصالـة التحرير، ينظـر إلى وجـوه الصحفيـين، بعضهـم يبادلـه النظـر في فضـول، يسـأل إحـدى الصحفيـات : يـا انـشراح كان معـاي زول قبـل شـوية في المكتـب.

ترد انشراح وعلى شفتيها ابتسامة خبيثة :- زول ... ولا زولة ..

ينتفـض مـن رعـب الإجابـة ، تسـتطرد انـشرح : حتـى إنـك كنـتَ بتـصرخ معاهـا

- يصرخ : إنت متأكدة..؟

ينظـر إليـه الجميـع في ريبـة، يتـدارك أمـره ويدخـل إلى مكتبـه سريعـا قبـل أن يفتضـح أمـره ويتّهـم بالجنـون، يجلـس عـلى المكتـب يجمـع بقيـة أوراق الروايـة النحـس، إنّـه عـلى أعتـاب الجنـون .. لابـدّ مـن مقابلـة زبيـدة وإسـماعيل حامـد قبـل مـوت الأخـير، السـاعة الآن تشـير إلى الخامسـة عـصراً عليـه أن ينتظـر الوقـت الـذى توقفـت الروايـة عنـده الثامنـة مسـاء.

عقـارب السـاعة تشـير إلى الثامنـة إلا عـشر دقائـق، أغلـب موظفـي الجريـدة خرجـوا ، أمسـك المؤلـف بقلمـه وسرح مـع الأوراق بدخولـه

في قلب تفاصيل الأحداث هنالك، وفي عمق الرواية والصفحة الرابعة والعشرين، وفي عالم الخيال كان الولوج الأخير، دخل الكاتب إلى الحي المظلم حيث تدور حياة إسماعيل ومن معه، هنا تغيب حكومة النظام في هذه البلاد وتنتصر الخرافة، الربّ منسي في تلك الجغرافيا، هنالك في تلك الأنحاء على تخوم المدينة الكبيرة حيث يعيش الموت والبشر متحالفان وتتحرك الشهوة والكبت معاً ويتناجى الجنس والخمر، يختلط صناح الرجال بعد دوام يوم مرهق تحت شمس مدينة الحاكم بإسم الرب مع رائحة دخان الطلح، قبلات مسروقة تحت لافتات المشروع الحضاري، وأطفال حديثي الولادة تنهش لحومهم الكلاب الضالة، المدينة لا تعرف الفضيحة بعد أن غُيبت إرادة شعبها، يُفرغ ماء الوجود غصباً في رحم اليافعات بلاءً جديداً للوطن.

- ولادة الفقر قريبة ... هكذا نطقتها البتول بت الشول وهى تمسح الدلكة على جسمها بطريقة تلقائية خالية من أىّ أحاسيس ، مسبحة حاج عبدالقادر تتحرك بعجل يردّد الباقيات الصالحات بعد أن أتمّ صلاة العشاء فرض كفاية لكل سكان الحي، يطوي مصلاته بتوتر واضح يحدّق في ظلام الحوش حيث يتمدّد أولاده بعدد أيّام الأسبوع، بعد أن أسكت جوعهم بفطير مخلوط ببعض من حليب الغنم، لأغنامه وأولاده مكانة واحدة في قلبه. إلا أنّ المكانة الأكبر في قلب حاج عبدالقادر تتربع فيها البتول بت الشول مع الأتان أنثى الحمار والتي تساعده في جلب رزقه بالكارو وفي كثير من الأحيان تحلّ محل البتول عند بداية كلّ شهر أو عند ممانعة بت الشول.

نظر الحاج إلى زوجته يستعجلها أن تتمّ عملها، تأتى البتول ورائحة الطلح والعطور البلدية تخرج من مسامتها، لعاب الحاج يسيل مثل ثور هائج، يسدل الليل سواده و يستمر سواد الوطن الي حين ، في تلك الحقبة السوداء من عمر البلاد تغيرت الأسماء بأسماء الأنبياء، وتبدّل الضمير، وتغيّرت الاخلاق، وأصبحت الحياة تدور حول ذلك المنفذ الصغير والذى جعله الربّ المنسيّ من قبل حكومة البلاد الكبيرة أولى محطات الخروج من نفق الظلمات الثلاث.

العنقريب القديم بالغرفة الوحيدة بمنزل حاج عبدالقادر يصدر أنيناً أجوف، ويحذّر من شقاء جديد، ينتفض حاج عبدالقادر من على ظهر البتول على صوت صيحة قادمة من منزل جاره إسماعيل حامد، يلتقط الشيخ المسن عراقيه على عجل ويستر نفسه بسروال طويل رائحة المحلب مازالت عالقة بذلك الجسد الكهل الذى تعاقبت عليه خيبات النظم السياسية لهذا الوطن، البتول تنتفض مرتعشة في شعور متداخل ما بين النشوة والخلعة ترتدى ثوبها وهى ترتجف : الصوت جااي من بيت ناس زبيدة آآآآ الحاج

يردد الشيخ ..... ربنا يستر ... ربنا يستر ... يا لطيف ... يا لطيف ....

يتناول عكازه ويفتح باب الغرفة المتآكة أساسا مثل اقتصاد الوطن اصطفّ أبناء البتول أمام حائط الغرفة التي شهدت بدايات تكوينهم الأولى كما ذكر الله تعالى في سورة المؤمنين، ينظر حاج عبدالقادر من أعلى حائط الجالوص القصير إلى منزل إسماعيل حامد، تجمّع أبناء الحي وقفز بعضهم إلى داخل الحوش، تسلّق

الشيخ المسنّ الحائط بخفة تتنافى مع سنّه ودلف إلى داخل المنزل معه عدد من الشباب، حسين المعرّص يتعجل رسم السيناريو يوجه حديثه لبعض شباب شلة (يخس)

- ما قلت ليكم أنا شفت زبيدة قبيل طالعة لابسة بلوزة سوداء واسكيرت أبيض قالت ماشه مشوار ضرورى كانت بتتكلم مع سعدية الحلبية قريب من دكاني ، رجعت البيت حوالى الساعة ثمانية كدة بعديها طوااالى شفتة ليك راجل غريب جاء بأمجاد وقف جنبي وانا بفرغ في شوال الفحم وسألني عن بيت إسماعيل حامد وزوجتو زبيدة. إسماعيل التقول كان منتظرو أول ما شافو جاء جاري جري دفع لبتاع الأمجاد وسلّم على الراجل، وعرّفنى عليهو وقال لى دا المؤلف شال ليهو قزازة بارد بزيانوس وساق الراجل ودخل بيهو البيت الغريبة الراجل كان بعاين ليهو بخوف وبقول انت رجعت كيف انت رجعت انت موش متً واسماعيل بقول ليهو اصبر ح احكي ليك اصبر وسريع جدا اتحركوا علي البيت

نظر إليه الجميع بدهشة، صرخ فيه حاج عبدالقادر بتوتر : اسكت يا راجل اسكت النشوف الحاصل شنو جوّه.

وصل الجميع إلى الحوش الجوّاني لمنزل إسماعيل، وهنالك وأمام المرحاض البلدي تكوّمت جثة تنزف منها الدماء صرخ حسين :- دااا الراجل الغريب ذاااتو ..... دا المؤلف

وعـلى مقربـة مـن بـاب الغرفـة الوحيـدة التـي بالمنـزل كان إسـماعيل حامـد جالسـاً عـلى مكتـب مكـون مـن تربيـزة كبـيرة وكرسـى خيـزران ممسـكاً عـلى قلـم يكتـب عـلى عـدد مـن الأوراق تفاصيـل روايـة لم تنتـهِ بعـد، وخلفـه كانـت زوجتـه زبيـدة تهـمّ بوضـع كـوب شـاى، رفـع إسـماعيل راسـه إليهـم وعـلى شـفته ابتسـامة سـاخرة وهـو يقـول :- أيـوه دا المؤلـف .... مـات او بالأصـح كتلتـو ... ومـن السـاعة أنـا المؤلـف ... أنـا الكاتـب ... وأنـا الشـخصية الرئيسـية للروايـة.

وقـف الجميـع في ذهـول تـام في انتظـار مصيرهـم عـلى يـد إسـماعيل حامد وبدايـة فصـول جديـدة لروايـة مـا بعـد التغيـير.

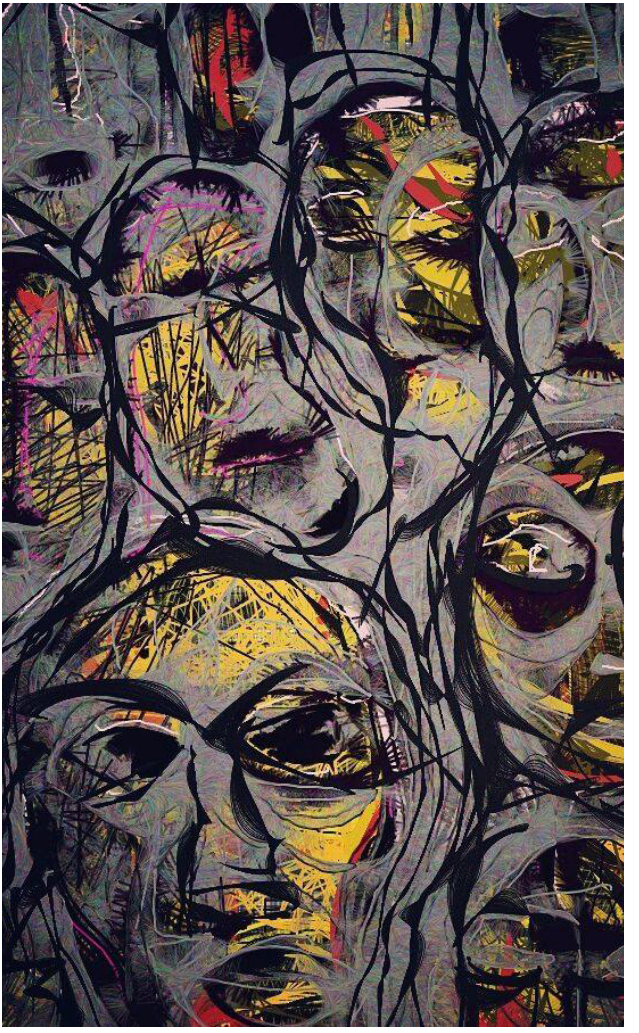

رسولُ النفاق

ينتابك شعور بالتقيّؤ بمجرد التفكير في أيّ شيء، إحساس التوهان والحرمان والوجع،

يا من أجبرك الزمان على نسيان حافة الذاكرة لديك ..

يخاطب ظلّه في يأس :- (هل مارست يوماً في ذاتك إحساس المرح بدون ثمن ؟)

يجيب ظلّه في ضجر:- ويحك اصمت فالوطن لم يعد لمثلك ...

يهمهم بهمس: ويحي على زمان يجبرك صمتك على الصراخ بدون صوت .

الآن أنت مثل صنم غبي وضع على أبواب ميدان السوق الكبير في عهد بائد سحيق ورسمت عناكب التاريخ الفاشل خارطة لشباك مهترئة تسخر من تلك الأعلام التي رفعت ومن تلك التكبيرات والتهليلات التي تخرج كريهة الرائحة.

ومن أطفال السوق الكبير.....

ومن شعارات التوحّد والسلام الزائف .....

يخاطب قبره متوهماً.

إنّي أسالك مرة أخرى أيّها الشاذ الباكي على ذاتك،

ماذا فعلت مريم حتى تفقد وطن .... ؟

صوت من أسفل قمة رأسه يخاطبه في ضجر .....

بل أنت ماذا فعلت منذ تلك الليلة المشؤومة، أنت في دورانٍ أبدي أيّها الأحمق بعد أن فقدت معاني الرجولة على أعتاب الغار، ومارست هنالك في غياهب الغار السحيقة الرزيلة، ورميت بذرة التشاؤم نطفة في أحشاء مطلقة الفتنة والجوع والوطن الكبير، وكانك تسخر من وحي إلهامك الغائب بعد تبليغك بأنّك رسول النفاق والرياء إلى سكان هذه المدينة الأتقياء أصحاب الذقون المسطّرة السوداء .. وشاربي صناح النساء عنوة وغصب ..

عندها فقط هامت الفتنة تبحث عن طليقها الوطن لتداري فضيحتها إلى أن جاءها ألم التعاسة على تخوم شجرة تبلدي يابسة يجتاحها السموم من كلّ صوب.

لم يهتز جذع الشجرة ..

ولم تتساقط عليه ثماراً جنيّاً

ولكـن فاضـت أوجاعـك أنـت مـن إحسـاس التوهـان والنسـيان مـن ذاكـرة ماضيـك.

نفـس الصـوت القديـم يخاطبـه مـن أعـلى أسـفل قدميـه أو أدنـى قليـلاً، يذكّـره بوحدانيّـة ذاتـه يخاطبـه في اشـمئزاز:

يااا من بعث رسولاً..
قف ..... تريث ....

تـردّ بخـوف متزمـلاً ومتدثـراً النفـاق والريـاء :- لسـتُ بواقـف ..... لسـتُ بجالـس.

ثـمّ تنعـم بخـرس دائـم، تحـاول الـصراخ يرفـض صوتـك التجـاوب وينقـض عليـك الحواريـون مـن كل صـوب تـزج في غياهـب السـجون التـي اورثـت وهنالـك في ظلمـة السـجن الكئيـب

ينتابـك الشـعور القديـم بمجـرد التفكـير في الوطـن .. ومـا فعلتـه في مـن بعثـت إليهـم

ترميـك قدمـاك مـرة أخـرى إلى غـار الرسـالة ونـزول وحـي الحقـد والكراهيـة عليـك، وهنـاك أعـلى الجبـل، جبـل الظلـمات، وداخـل الغـار تمـارس العبـادة والحياكـة والدعـارة العميـاء ..

صوت يناديك يخاطبك من داخل إلهامك الغبي ..

*** مت .... مت**

فقد مات قبلك مبعوثون كثيرون ..

مت ... مت

تغمض عينيك وأنت تردّد بتوهان حرقة تجتاح دواخلك (اليوم رسمت لكم وطناً باهتاً ورضيت لكم التعاسة سبيلاً).

الشجرة

حكى لى جدي لأبي ذات يوم عن تلك الشجرة في الدار القديم بأنّ عمرها قد قارب الثلاثون سنه

قال لي: نبتت تلك الشجرة فجأة لم نكن ندري بها في ساحة المنزل القديم كانت طريّة وناعمة تحمل أزهاراً جميلة المنظر (كريهة) الرائحة لها أشواك صغيرة مدبّبه عندما تنغرس في أطراف أحد فإنّ العضو يتضخّم ويتورّم إلى أن يبتر..

يقول جدّى بعد أن سرح بعيداً في ذكرى تلك الليلة المشؤومة : لم يعر الشجرة أحد في البداية، ويوماً بعد يوم اشتدّ عود الشجرة، وامتدت جذورها إلى (المرحاض) البلدي الذي بالمنزل ورضعت جذورها من هذه الفضلات التي تخرج من بطوننا.

كبرت الشجرة وتهدّم المرحاض من قوّة جذورها الضاربة .. و أصبح جذع الشجرة كبيراً وامتدت أغصانها بأشواكها على امتداد ساحة المنزل القديم ممّا أعاق الحركة بصورة مزعجه .. وأدّى الأمر لأن تمّ تقسيم المنزل الكبير إلى قسمين، نزلت من جدّي دمعة حزن وهو ينظر إلى منزله القديم وقد أصبح كلّ قسم قائماً بذاته بفعل شجرة الزقّوم هذه.

أذكـر فيـما أذكـر بـأنّ جـدي لأبي حـاول مـراراً اقتـلاع تلـك الشـجرة مـن جذورهـا في وقـت سـابق و لم يسـتطع . حـاول أعمامـي الواحـد تلـو الآخـر ولم يسـتطيعوا .. حتـى سرى اليـأس في النفـوس باسـتحاله اقتـلاع تلـك الشـجرة الخبيثـة..

ومـع مـرور الأيّـام .. كُنـا نحـن.. أنـا وأبنـاء عمومتـي ننظـر إلى شـجرة السـوء، حاولنـا منفرديـن في بـادئ الأمـر وفشـلنا فشـلاً كبـيراً، وأخـيرا وفي ذكـرى ميـلاد جـدّي والتـي تصـادف الواحـد والعشريـن مـن أكتوبر تجمّعنـا معـاً .. كلّ أبنـاء العائلـة .. وقرّرنـا أن لابـدّ مـن اقتـلاع الشـجرة اليـوم قبـل الغـد ... لم نكـرّر الأخطـاء مـرة أخـرى فقـد رضعـت الشـجرة مـن فضلاتنـا التـي تخـرج مـن بطوننـا، أعمامـي وأبي تركـوا الشـجرة تكـبر أمـام أعينهـم، تركوهـا حتـى ضربـت عروقهـا الأرض في منـزل جـدي، الـذي كان مـن أكـبر بيـوت الحـي في وقـت سـابق.

وعـلى امتـداد يـوم شـاق وبجهـد ومثابـرة وبتفـاني كلّ العائلـة ألقينـا بآخـر جـذع للشـجرة خـارج المنـزل تورّمـت أجسـامنا وفقـد أحـد أبنـاء عمومتـي عينـه، واختنـق أخـي برائحتهـا الكريهـة، أمّـا جـدّي فقـد أصيـب في راسـه، حتّـى أختـي الصغـرى طريحـة الفـراش بعـد أن سـقوط أحـد الأفـرع الكبـيرة عليهـا .. وبرغـم التضحيـات تلـك إلاّ أنّ الجميـع في نشـوة الانتصـار، و جـدّي يرسـل ابتسـاماته برغـم ألمـه الكبـير مـن الجـرح الـذي برأسـه، لقـد انتهـى الكابـوس وعـاد البيـت الكبـير كبـيراً ....

• •

(رضعت الشجرة من فضلاتنا التي تخرج من بطوننا، أعمامي وأبي تركوا الشجرة تكبر أمام أعينهم، تركوها حتى ضربت عروقها الأرض في منزل جدي، الذي كان من أكبر بيوت الحي في وقت سابق .)

• • •